Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

موقف ابن قتيبة من بلاغة الجاحظ، قراءة في المضمرات المعرفية والتحيزات الأيديولوجية

Ibn Qutayba's position on the rhetoric of Al-Jahiz, a reading of epistemic expressions and ideological biases

كحلي رابح ، دردار بشير kahli rabah, darder bachir

1 جامعة أحمد بن يحي الونشريسي تيسمسيلت، مخبر الدراسات النقدية والأدبية، kahli.rabah@cuniv-tissemsilt.dz

Kahli rabah, Université Ahmed ben Yahia el Wancharissi Tissemsilt

2 دردار بشير، جامعة أحمد بن يحي الونشريسي تيسمسيلت، مخبر الدراسات النقدية والأدبية، bacderdar@gmail.com

المؤلف المرسل: كحلي رابح kahli rabah الإيميل: kahli.rabah@cuniv-tissemsilt.dz

تاريخ الاستلام : 2020-12-14 **تاريخ القبول :** 2021-04-11

ملخص:

يروم هذا البحث الكشف عن موقف ابن قتيبة من بلاغة الجاحظ ضمن الأيديولوجيا التي لم تفارقهما، كما يتغيا أيضا تسليط الأضواء على الايديولوجيا عند الجاحظ وابن قتيبة، ومحاولة كشف حجم الصراع الحاد بين الجاحظ وابن قتيبة.

وتوصل الباحث إلى النتائج التالية: استفادة ابن قتيبة من الجاحظ في كثير من القضايا ورفض طريقة الجاحظ في الكتابة لدواع ثقافية وفكرية، كما توصل إلى إلحاح ابن قتيبة على التشبث بالأصالة والتنديد بالانحراف الأخلاقي في كتب الجاحظ، كما توصل كذلك إلى أن قراءة ابن قتيبة لبلاغة الجاحظ أثرت في القراءات التي أتت من بعده، وكذلك مثلت تعليقات ابن قتيبة مجمل الصراع الحاد الذي جرى بين الجاحظ وابن قتيبة وبين المتكلمين وأهل السنة.

كلمات مفتاحية: الجاحظ، ابن قتيبة، الأيديولوجيا، البلاغة، البيان، المضمرات المعرفية.

Abstract:

This research aims to reveal Ibn Qutayba's position on Al-Jahiz's rhetoric within the ideology that did not separate them, and also seeks to shed light on the ideology of Al-Jahiz and Ibn Qutayba, and an attempt to reveal the extent of the sharp conflict between Al-Jahiz and Ibn Qutayba. The researcher reached the following results: Ibn Qutaybah benefited from Al-Jahiz in many of your issues, and also reached Ibn Qutayba's insistence on clinging to authenticity and denouncing the moral deviation in the books of Al-Jahiz, and the reading of Ibn Qutaybah influenced the readings that came after him.

Keywords: Ibn Qutaybah, Al-Jahiz, rhetoric, ideology, Ahl-as-Sunnah.

مقدمة:

لقد كُتب للبلاغة العربية أن تنمو بين بلاغيين كبيرين، بين الجاحظ المعتزلي وبين ابن قتيبة السنّي، بين زاويتي: المعتزلة والفقهاء، بين -الجاحظ الأديب المتكلم وبين ابن قتيبة الفقيه المفكر- جرت حرب خفية تولدت عبر مؤلفاتهم، إلاّ أن الإيديولوجيا أجبرتهما على محاولة اكتساح بعضهم البعض، وفي الوقت نفسه تعرضت المدونة الجاحظية لنقد شديد حاول فيه ابن قتيبة التعليق على ما ورد فيها من سقطات أخلاقية كأدب الفساق واللصوص والبخلاء والحمقى، فازدانت البلاغة العربية بالرجلين وازدهرت بينهما.

ومن خلال الدراسة الاستطلاعية والبحث والنماذج التي تم الحصول عليها استطاع الباحث أن يطرح مشكلة في أول بحثه بالتساؤل الآتي: هل كانت تعليقات ابن قتيبة على بلاغة الجاحظ متحررة من الهاجس الايديولوجي؟ وما هي دواعي هجوم وتعصب ابن قتيبة على الجاحظ، وهل كانت قراءته قراءة محايدة ؟.

فرضيات البحث: افترض الباحث أن ابن قتيبة منصفا للجاحظ، وافترض أن بلاغة الجاحظ كانت من منطلق متكلم وأديب معتزلي.

الغرض من هذا البحث:

- الكشف عن موقف ابن قتيبة في رده على الجاحظ.
- تسليط الضوء على الإيديولوجيا ودورها في إذكاء الروح النقدية لدي ابن قتيبة، وبروزها كذلك لدى الجاحظ.
- محاولة كشف حجم الصراع الحاد بين الجاحظ وابن قتيبة.

منهجية البحث: طبيعة البحث تقتضي استخدام المنهج التأريخي والمنهج الوصفي التحليلي واستنباط النتائج منها التحليل والاستقصاء.

2. ابن قتيبة الشخص:

يعتبر ابن قتيبة (ت 276ه) واحدا من الذين اعتنوا بالأدب والبلاغة إبان القرن الثالث الهجري وهو بمثابة الجدار المتين الذي انعكست عليه خلافات وصراعات فكرية ومذهبية وبلاغية، فقد اهتم بالعلم منذ صغره، حيث درس الفارسية، وقرأ التوراة والإنجيل، وامتزجت لديه شتى الثقافات والمعارف حتى أصبح رأسا في العربية، واللغة، والفقه، والتاريخ، وقد أجازه الجاحظ في بعض كتبه، «سخّر ابن قتيبة رحمه الله لسانه وقلمه للدفاع عن السنة النبوية، ووقف كالطود الأشم أمام عقائد الفرق الضالة يذب عن عقيدة السلف أهل الحديث، وينفر من الفلسفة والكلام وأهله ويذمهما»[1]، بل طالت حربه المتكلمين وغيرهم، هذا ما ولّد صراعا مريرا بينه وبين الجاحظ، فقد انبرى له ولبلاغته يُقومها حينها، وينتقدها أحيانا أخرى.

قيل فيه الكثير من طرف أهل السير والتراجم وها هو شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة، فإنه خطيب أهل السنة، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة[2]، وفي مصنفاته ردود قوية على كل من يخالف تعاليم الإسلام، ولولا موته المبكر لكان غزير الانتاج أكثر من الجاحظ، فقد عمّر نحوا من الستين أما الجاحظ عمّر أكثر من التسعين، ومع ذلك كل ما يذكر الجاحظ إلا ذُكر ابن قتيبة.

3. الفكر الاعتزالي والسنّي تصادم وتجاذب:

إن الفكر الاعتزالي وأبرز من يمثله الجاحظ (ت 255ه)، صاحب البيان والتبيين، والحيوان، وبعض الرسائل، ونظم القرآن الذي يخال المرء أنه كان يمكن أن يسد ثغرة في جملة التفكير البلاغي والنقدي عند أبي عثمان[3]، هو أهم نسق فكري وثقافي أرّق ابن قتيبة، بل تفاعل معه بالرفض حينا، وبالقبول أحيانا أخرى.

والجاحظ معلم العلم والأدب لا يختلف فيه رأيان حول ما وصل إليه الرجل من غزارة أدبية حيرت الدارسين، وإذا قلبت الطرف في أدب الجاحظ، فإنك واقع منه على العجب العجاب، تهم بإكباره، منشئا ملهما، فيقصرك التردد، إذ يطالعك بناء ضخم لديه، من نقد وعلم ورواية ومنطق وفلسفة وموسوعية[4].

والذي يهمنا في هذا البحث هو أبي عثمان، «فابن قتيبة من جهة مفتون بالجاحظ، مأخوذ بأدبه، لا يتحرج من محاكاته ومجاراته عندما يتصل الأمر بالأدب، لكنه لا يلبث من جهة مقابلة، أن ينشق عنه ويناصبه العداء عندما يتعلق الأمر بالعقيدة»[5]، والناظر في ما كتب عن الرجلين دوما يجد اسم ابن قتيبة مقرونا بالجاحظ خاصة في ميدان الأدب والبلاغة. والبلاغة –كما رأينا- هي مجال لانعكاس الثقافات برغم تعددها، وتفريعها[6].

وفي نفس السياق نجد جابر عصفور يشير إلى أن المعتزلة أصبحت الممثل الرسمي للخلافة وهي في صراع دائم مع كل من يخالفها، ومن ذا الذي يستطيع «أن يفصل التضاد بين ابن قتيبة والجاحظ عن التضاد بين النقل والعقل»[7]، هي حرب فكرية لكسب المزيد من الانتصارات، وهو سجال بين الرجلين لهما مقومات الريادة والقيادة العلمية والدعوية والخطابية والفقهية، والناظر في كتب التاريخ يرى أنه وقع صدام كبير بين المعتزلة وأحمد بن حنبل خاصة في محنة امتحان الناس بخلق القرآن، وما تلاها من أحداث مؤلمة استغل فيها المعتزلة قربهم من الخليفة لينقضوا على خصومهم.

4. موقف ابن قتيبة من بلاغة الجاحظ:

كان ابن قتيبة من أوائل القراء الذين تناولوا بلاغة الجاحظ بجدية، حيث نجد محمد مشبال يؤكد هذا ويراه هو الممهد لمن بعده من القراء الذي تعاقبوا على مؤلفات الجاحظ

حيث يقول: «إن قراءة ابن قتيبة لنثر الجاحظ ستتحكم في كثير من القراءات اللاحقة وتوجهها، وإن لم نعدم قراءات مخالفة لها، مثل قراءة أبي حيان التوحيدي»[8]، فابن قتيبة كان من أشد القراء مخالفة لأسلوب الجاحظ، وهذا ما سنراه لا حقا في هذا البحث.

وفي نفس السياق نستطيع القول أن ارتباط المباحث البلاغة عند ابن قتيبة بالخلفية العقدية التي ولّدت لديه تصورا مكتملا حيث جرّ البلاغة لما تقتضيه الخلفية الفكرية السنّية على وجه الخصوص، «إسقاط الغرض العقدي الديني على الغرض الأدبي الجمالي، أي تحكم الفكر والعقيدة الدينية أو السياسية أو الحزبية... في إنتاج الخطاب وتدبيج الكلام وتحسين وبناء النص»[9]، هذا التصور لازمه في كل مؤلفاته، وشكّل مضمرا حجاجيا وموجها إيديولوجيا لابن قتيبة في الرد على المخالفين فيما بعد، وبرز هذا المضمر للعلن في المواجهة التي أعلنها على اعتراضات الطاعنين في القرآن والسنة.

وفي نفس السياق نجده «أحسن المتقدمين للحجة استثارة، وأشدهم تلطفا، لتعظيم الصغير حتى يعظم، وتصغير العظيم حتى يصغر، ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشيء ونقيضه، ويحتج لفضل السودان على البيضان، وتجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة، ومرة يفضل عليا رضي الله عنه، ومرة يؤخره»[10]، وهذا الذي جعل ابن قتيبة يطعن في بلاغة الجاحظ من هذا الباب.

5. الجاحظ وابن قتيبة تعارض عقدي وتواصل أدبي:

استطاع ابن قتيبة أن يدك معاقل المتكلمين بمؤلفات كثيرة، وأينما ذكر الجاحظ ذكر ابن قتيبة، وأضحى منافسا له، «فإذا كان ابن قتيبة والجاحظ قد اجتمعا على صُعد عديدة من الفكر والأدب، فقد افترقا في أخرى، كلاهما ألف في العقيدة والأدب، انطلاقا من انتماء عقدي (فكر السنّة عند ابن قتيبة وفكر المعتزلة عند الجاحظ)، كلاهما ألف في القرآن والقراءات والنبوة والأحاديث»[11]، كل هذه المؤلفات لم تشفع لهما بالتقارب، فالجاحظ كان مؤلفا بارعا وهو معلم العلم والأدب كما يقولون، ولكن ابن قتيبة السنّي أخذ يتتبع الجاحظ في مواضع كثيرة، ويرد عليه كل شاردة وواردة.

رغم ذيوع صيت الجاحظ الأديب والبلاغي إلاّ أن هذا لم يشفع له عند ابن قتيبة، بل طاله مقص النقد كثيرا، وردّ عليه في عدة قضايا كثيرة تناولها الجاحظ، خاصة في قوله بخلق القرآن ومعاداة أهل الحديث، وهي أسباب جعلت ابن قتيبة القاضي والفقيه لا يتسامح مع أبي عثمان، ولكنه «كان يأخذ عنه بعض المعارف العامة خاصة ما اتصل منها بالأدب»[12]، فانقطاعهما عقديا لا يعني القطيعة بينهما بل هذا التنافر كان لا يخرج عن الطابع الأخلاقي ولم يكن ليشمل الأدب.

فالجاحظ في نظر ابن قتيبة هو «أحسن المتقدمين للحجة استثارةً، وأشدهم تلطفا، لتعظيم الصغير، حتى يعظم، وتصغير العظيم حتى يصغر، ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشيء ونقيضه، ويحتج لفضل السودان على البيضان، وتجده يحتج، مرة للعثمانية على الرافضة، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنّة، ومرة يفضل عليا رضي الله عنه، ومرة يؤخره»[13]، وهذا ينبيك على قدرة الجاحظ البيانية البلاغية.

وفي نفس السياق نجد البغدادي وابن قتيبة وغيرهما يرفضون الموضوعات التي استحدثها أبي عثمان في النثر العربي، وهي نظرة تلتمس تغليب الجانب العملي للأدب، وهؤلاء الأدباء يمثلون الطبقة التي كانت ضد بلاغة الجاحظ المستحدثة التي حملت بين طياتها الجد والهزل وغيرها مما سيأتي الكلام عليه.

وعن سحر البيان والحجة والإقناع في تعليقه على حديث الرسول صلى الله عليه وسلم {إن من البيان لسحرا} يقول ابن قتيبة: «يريد منه ما يقرب البعيد ويباعد القريب، ويزين القبيح، ويعظم الصغير، فكأنه سحر»[14]، فسحر البيان عند ابن قتيبة شيء مهم ونبيل فبه يستطيع استمالة القلوب واستعمال القدرة البلاغية في ما يصبو إليه، والرد على الطاعنين في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

والغرض الرئيس عند ابن قتيبة من البلاغة هو تمكن المتكلم والقدرة على الاحتجاج للرأي وإثباته بالحجج والبراهين، ومناظرة المجادل والقضاء عليه، فالبلاغة هي سلاح الخطباء وسيف أهل المنابر، «وقد اختار المؤلف مقامين فرعيين هما: مقام الإيجاز ومقام الإطناب لتفسير هذا المفهوم، يقول لكل مقام مقال»[15]، فالإيجاز يصلح لجميع أوضاع التخاطب التي يستعملها

المتكلم للتهديد والوعيد كما هو حاصل في رسالة يزيد بن الوليد إلى مروان.

تعارض عقدي وتواصل أدبي بين الجاحظ وابن قتيبة:

إن هجوم ابن قتيبة على الجاحظ كان بسبب اعتزال هذا الأخير، وهجوم ابن قتيبة على الجاحظ كان «مقصور على الناحية المذهبية دون سواها»[16]، فابن قتيبة لم يكن ليهادن أحدا في العقيدة مهما بلغ كعبه في الفكر والأدب، ولكن مروياته التي نقلها من مؤلفات الجاحظ لا تحصى ولا تعد في الأدب.

إن البلاغة التي انتجتها المعتزلة تدور في فلك العقل في تقدير الأشياء وفهم العقيدة، وتفسير الكون، كما بنيت أيضا على أصل كبير هو الشك، «ولذلك فإن الشك أساس هذه الثقافة العربية»[17]، هذا الشك لا مكان فيه لليقينيات والمسلمات، وعدّوهُ منهجا للمعرفة والتحقيق، وتأصيل القضايا التي يبحثون فيها، فمنه ينطلقون وإليه ينتهون، وبمقابل الشك جعلوا النقل من القرآن وصحيح السنّة من المنسيات التي يستأنس بها حينا بعد حين.

ابن قتيبة وبلاغة الجاحظ:

كان لابن قتيبة الكثير من الكلام حول بلاغة الجاحظ، ومنطلقهُ في هذا تلكم القضايا التي خاض فيها هذا الأخير كتعلم السرقة وأدب الكدية والدعارة واللواط، وهي موضوعات جنت على الجاحظ نفسه، وهي أفعال شنيعة تمثلت في قول الكلام الفاحش والإباحية والمجون، وهي مواضيع خاض فيها الجاحظ، وكانت سببا في نصب العداء له، والظاهر أن ابن قتيبة قام بمحاكمة البلاغة التي أفرزتها نصوص أبي عثمان استنادا إلى معيار ديني أخلاقي، ويشهد لذلك ما قاله في هذا البيت:

فلا تكتب بخطك غير شيء يصرك في القيامة أن تراهُ[18]

ففي هذا البيت لابن قتيبة ينتقد الجاحظ ويحاول تقويم هذا الأدب بمنظور ديني بحت، كما يرى في بلاغة الجاحظ فتنة تقوض الأخلاق وتهدد مبادئ الدّين، ولذلك لم يحفل بما انطوت عليه نصوص الجاحظ النثرية من جماليات، وبهذا الحكم يكون ابن قتيبة قد حدد، «ملامح الأفق البلاغي الجديد الذي رسمه الجاحظ وبذلك أسهم في تحديد الأفق البلاغي والجمالي الذي قام بمخالفته»[19] عدة مرات في مؤلفاته المختلفة.

كانت الصلة وثيقة بين البلاغة والإيديولوجيا، لأن البلاغة بمفهومها العام هي الإبلاغ والإبانة، وهي استمالة المتلقين واقناع المخاطَبين، «وهي سياسة البلاغة التي هي أصعب من البلاغة فيما يروي الجاحظ عن سهل بن هارون، ولذلك الصلة تنعقد وثيقة بين الايديولوجيا والبلاغة، إذ الايديولوجيا في المطلق ليست سوى مجال من مجالي البلاغة»[20]، وها هنا يظهر التداخل البلاغة والايديولوجيا وكلاهما يمثل تيارا مختلفا عن الآخر، جمعتهما البلاغة وفرقتهما الإيديولوجيا في النهاية، والإيديولوجيا هي المحرك الرئيس للمتلقي والباث، وهي كما قررها (بول ريكور) Paul Ricœur والذي حصر أهم الخصائص المميزة للإيديولوجيا[21].

وفي اقتران الجد بالهزل أو المزج بين السامي والوضيع في سياق واحد، نجد إبن قتيبة يعيب على الجاحظ ابتداءه «بقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتبعه قال الجماز، وقال اسماعيل بن غزوان كذا وكذا، من الفواحش ولا يتنزه عن الاستهزاء بمقام نبينا في كتاباته»[22]، وهذه المؤاخذات من ابن قتيبة للجاحظ تدور في فلك المخالفات الشرعية، التي حاول ابن قتيبة الرد عليه من خلالها.

ولعل ما يسلينا في الإجابة عن سبب جرأة الجاحظ البلاغية، ومحاولته التجديدية فيها، والسير نحو الجمالية، بعد أن عمّرت طويلا -علمية-، هو أن الجاحظ يتوجه إلى صنف من المتلقين لا يقعون في دائرة المسؤولية الدينية كـ «الأحداث وشراب النبيذ الذين يريد استمالتهم في كتبه التي قصد فيها للمضاحيك والعبث»[23]، ولعل الوازع الديني والأخلاقي هو الذي جعل نقد ابن قتيبة يتغير بين الفينة والأخرى، ومع كل هذا يبقى معجبا بنثر الجاحظ.

اعتمد الجاحظ بلاغة غير تقليدية، استبدلها بالموضوعات الهزلية ومزجها بالجد والهزل، وهي رسالة من الجاحظ إلى متلقين مختلفين، ولم يحصرها في صنف واحد، أو جنس معين، هذه البلاغة التي رفضها ابن قتيبة وعبد القاهر البغدادي تمثلت في كتاب في حيل اللصوص وكتابه في غش

الصناعات وكتابه في النواميس، وكتابه في الفتيا ومنها كتبه في القحاب، والكلاب، والملاطة[24].

وفي قضية اللفظ والمعنى نجد الجاحظ يقول حول المعنى وشرفه: «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات»[25]، وهنا نجد ابن قتيبة له رأيا يطابق نوعا ما رأي الجاحظ بحيث يكون المعنى جيدا عند توفر شروط إذ يطابق المقام الذي قيلت فيه، وهو ما يراه كذلك لسان الدين ابن الخطيب «وإنما تتجلى الأدبية عنده كأديب ذواقة في تواشج اللفظ والمعنى، واكتمال الواحد منهما بالآخر»[26]

ابن قتيبة منصفا للجاحظ:

لقد أنصف ابن قتيبة الجاحظ كثيرا تلميحا أو تصريحا هذا ما يؤكده حمادي صمود في كتابه الموسوم: (التفكير البلاغي عند العرب) تناول فيه قراءة ابن قتيبة للجاحظ، حيث يقول: «ولم يستطع ابن قتيبة خصيم الجاحظ من وجهة عقائدية، ورغم فورات الغضب التي تنتابه وهو يستعرض بعض آرائه، أن يفلت من تسلط كثير من آرائه اللغوية والبيانية عليه وإن كان لا يبلغ في تفسيرها وتعليلها عمق الجاحظ ودقة نظره رغم توسعه في استعراض التفاصيل بكيفية لم نلحظها عند سلفه»[27]، فابن قتيبة يعترف للجاحظ بالتفوق والعمق ودقة النظر.

إن الناظر في آثار ابن قتيبة يرى أنه قد كان يشرح الكثير مما أثاره الجاحظ، خاصة في البيان والبيان، من ألوان ومسائل بلاغية، «فقد ذكر في قوله تعالى للسماء والأرض ﴿ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾[28]، إن الله سبحانه وتعالى لم يقل وأن السماء والأرض لم تقولا، وكيف يخاطب معدوما؟ وإنما هذا عبارة: لكونهما فكانتا، كما قال الشاعر حكاية عن ناقته:

تقولُ إذ درأت لها وضيني أهذاً دينهُ أبداً وديني

أكلّ الدهرُ حلٍ وارتحالٍ أماً يبقىَ على ولا يقيني

وهي لم تقل شيئا من هذا، ولكنه رآها في حال من الجهد والكلال، فقضى عليها بأنها لو كانت ممن تقول مثل الذي ذكر، وكقول الآخر: ‹شكا إلى جملي طول السرى›، والجمل لم يشك، ولكنه خبر عن كثرة أسفاره وإتعابه جمله، وقضى على الجمل بأنه لو كان متكلما لاشتكى ما به، وكقول عنترة في فرسه:

فازورُ من وقعَ القنا بلبانهِ وشكًا إلى بعيرةٍ وتحمحمِ[29]

لما كان الذي أصابه يشتكي مثله ويستعبر منه، جعله مشتكيا مستعبرا، وليس هناك شكوى ولا عبرة[30].

وفي قراءته المعاكسة لبلاغة الجاحظ، نجده في موضع آخر يُعلي من شأن المعاني كرد فعل على الجاحظ الذي يرى بأفضلية الألفاظ من حيث بلاغة الكلام، وهذا واضح جلي في كتابه **الشعر والشعراء** فقد أعلى من شأن المعاني على حساب الألفاظ، «ومن يمعن النظر في عبارته يجد أنه نظر إلى الجاحظ على أنه يقدم اللفظ على المعنى من حيث بلاغة الكلام، فأراد أن يرد على مذهبه، فجعل للمعنى مزيته في البلاغة»[31]، وعلى هذا الأساس يرى أن الكلام لا يخرج عن ما حسن لفظه ومعناه، وما حسن معناه دون معناه، وما حسن معناه دون لفظه، وما ساء لفظا ومعنى.

ثم أورد أبياتا شعرية للتدليل على ضرب من الكلام الذي حسن لفظه، ولا تجد فيها معاني كبيرة، حيث يقول:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسحُ

وشدت على دهم المهارى رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائحُ

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح[32]

يقول ابن قتيبة في الشعر والشعراء تعقيبا على هذه الأبيات: «هذه الألفاظ كما ترى، أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع، وإن نظرت (إلى) ما تحتها من المعنى وجدته: ولما قطعنا أيام منىّ واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاء، ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح، ابتدأنا في الحديث، وسارت المطيّ في الأبطح»[33]، ثم يضيف أبياتا من قول المعلوط[34]:

إنّ الذين غدوا بلبّك غادروا وشلاً بعينيكَ ما يزالُ معيناً

غيّضن من عبراتهنَّ وقلنَ لي ماذا لقيتَ منَ الهوى ولقيناً

ويضيف أيضا قول جرير[35]:

يا أخت ناجيةَ السّلام عليكمُ قبل الرحيلِ وقبل لوم العُذّل

لو كنتُ أعلم أنّ آخر عهدكم يومُ الرحيل فعلتُ ما لم أفعل

ثم نرى ابن قتيبة يسير وفق طريقة الجاحظ في التقرب أكثر من القارئ، وها هو يقول: «ولم أخله من نادرة طريفة، وفطنة لطيفة، وكلمة معجبة، وأخرى مضحكة، لأروح بذلك عن القارئ من كد الجد وأتعاب الحق، فإن الأذن مجاجة، وللنفس حمضة، والمزج إذا كان حقا أو مقاربا، ولأحايينه وأوقاته، وأسباب أوجبته مشاكلا ليس من القبيح ولا من المنكر ولا من الكبائر ولا من الصغائر إن شاء الله وسينتهي بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة»[36]، وها هنا نستطيع القول أن مهما افترقا عقديا ومذهبيا إلا أنه سرعان ما يزول هذا الافتراق ويلتقيا في مملكة البلاغة ذات الأرض الخصبة، وكأني بهما يمثلان وجهان لعملة واحدة ألا وهي البلاغة والبيان.

6. خاتمة:

في نهاية هذا البحث الذي كان يروم كشف المضمرات بين الرجلين ويروم كذلك قراءة ابن قتيبة لبلاغة الجاحظ، وبعد التساؤلات التي طرحناها مبدئيا كانت تنتظر منا إجابات حاولنا الإجابة عليها في هذا البحث وقد استخلصناها في النقاط التالية:

- استفاد ابن قتيبة من الجاحظ ولكنه رفض طريقته لدواع ثقافية تتصل بالصراع الفكري والعقدي الذي كان محتدما وكبيرا بين المتكلمين وأهل السنة.
- يدعو إلى التشبث بالأصالة وينديد بالانحراف الأخلاقي في كتب الجاحظ.
- استشعار ابن قتيبة لخطورة المنطق على العقيدة والبيان العربي والهوية العربية.
- تعصب ابن قتيبة للعروبة والإسلام.
- قراءة ابن قتيبة لبلاغة الجاحظ أثرت في القراءات التي أتت بعده.
- اعتراف ابن قتيبة ببيان الجاحظ.
- صراع الجاحظ مع ابن قتيبة ما هو إلا صورة انعكاسية للصراع الحاد الذى كان قائما بين المتكلمين وأهل السنة.

6. قائمة المراجع:

1. إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة العربية الأولى، الاصدار الثالث، 2001.
2. ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، 1465هـ-2004م.
3. تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة: عبد الحليم النجار، دار المعارف، مصر، ط: 04.
4. حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، مشروع قراءة، دار الكتاب الجديدة، المتحدة، ط:03، 2010.
5. جابر عصفور، قراءة في التراث النقدي، دار سعاد الصباح، ط:1، 1992.
6. الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط: 07، 1418هـ-1998م.
7. البلاغة والسرد جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب، المغرب، 2010.
8. محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق – المغرب، ط: 02، 2010.
9. مصطفى الغرافي، البلاغة والإيديولوجيا دراسة في الخطاب النثري عند ابن قتيبة.
10. محمد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة الأنساق المتصارعة وجدل التأويل بحث في مسارات تلقي الخطاب البلاغي الجاحظي في النقد الحداثي، مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن، ط: 01، 2019، ص: 56.
11. ابن قتيبة، عيون الأخبار، المكتب الإسلامي بيروت، تحقيق: منذر محمد سعيد أبو شعر، ط:01، 1429-2008.
12. طه حسين، في الشعر الجاهلي، تقديم ودراسة وتحليل: سامح كريم، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط:3، 1436هـ- 2015م.
13. فوزي عطوي، الجاحظ دائرة معارف عصره، دار الفكر العربي بيروت، ط:02، 1998.

14. فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، المكتبة الانجلو المصرية، 2005.
15. ابن قتيبة، عيون الأخبار، المكتب الإسلامي بيروت، تحقيق: منذر محمد سعيد أبو شعر، ط:01، 1429-2008،
16. عيسى علي العاكوب، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط: 09، 1433هـ- 2012م.
17. شوقي علي زهرة، في المفهوم البلاغي عند الجاحظ قراءة إبداعية جديدة، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط: 01، 2016.
18. الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط: 07، 1418هـ- 1998م.
19. محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية)، دار المدار الثقافية، البليدة، الجزائر، ط: 01، 1430هـ- 2009م.

المقالات:
1. محمد الغرافي، البلاغة والتلقي نثر الجاحظ بين التشابه والاختلاف، مقال منشور في البلاغة العربية والمقاربات النقدية المعاصرة الآفاق العلاقات والوظائف، ص: 300.
2. **مواقع الانترنيت**: مصطفى الغرافي في «البلاغة والإيديولوجيا»: تحكّم الفكر والعقيدة الدينية أو السياسية في إنتاج الخطاب، مقال منشور في: القدس العربي، الأحد ، 13 ديسمبر ، 2020،
https://www.alquds.co.uk.

7. هوامش:

[1]- عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مختلف الحديث والرد على من يريب في الأخبار المدعى عليها التناقض، تحقيق: سليم الهلالي، دار ابن القيم السعودية- دار ابن عفان مصر، ط: 02، 1430 هـ- 2009م، ص: 17.

[2]- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، 1465هـ- 2004م، 17/ 392.

[3]- عيسى علي العاكوب، دارالوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط: 09، 1433هـ- 2012م، بتصرف: ص: 137.

[4]- فوزي عطوي، الجاحظ دائرة معارف عصره، دار الفكر العربي بيروت، ط:02، 1998، ص: 05.

[5]- محمد الغرافي، البلاغة والتلقي نثر الجاحظ بين التشابه والاختلاف، مقال منشور في البلاغة العربية والمقاربات النقدية المعاصرة الآفاق العلاقات والوظائف، ص: 300.

[6]- شوقي علي زهرة، في المفهوم البلاغي عند الجاحظ قراءة إبداعية جديدة، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط: 01، 2016، ص:19.

جابر عصفور، قراءة في التراث النقدي، دار سعاد الصباح، ط:1، 1992-[7]، ص: 58.

[8]- البلاغة والسرد جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب، المغرب، 2010، ص: 102.

[9]- مصطفى الغرافي في البلاغة والإيديولوجيا: تحكّم الفكر والعقيدة الدينية أو السياسية في إنتاج الخطاب، مقال منشور في: القدس العربي، الأحد، 13 ديسمبر، 2020،
https://www.alquds.co.uk.

[10]- محمد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة الأنساق المتصارعة وجدل التأويل بحث في مسارات تلقي الخطاب البلاغي الجاحظي في النقد الحداثي، مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن، ط: 01، 2019، ص: 56.

[11]- المرجع نفسه، ص: 79.

[12]- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، هامش 3، ص: 15.

[13]- محمد مشبال، البلاغة والسرد، ص: 102-103. تأويل مختلف الحديث، ص56، بتصرف.

[14]- ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج:2، ص: 14.

[15]- مصطفى الغرافي، البلاغة والإيديولوجيا دراسة في الخطاب النثري عند ابن قتيبة، ص: 75.

[16]- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة العربية الأولى، الاصدار الثالث، 2001، ص: 94.

[17]- طه حسين، في الشعر الجاهلي، تقديم ودراسة وتحليل: سامح كريم، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط:3، 1436هـ- 2015م، ص: 20.

[18]- المرجع نفسه، ص:57.

[19]- محمد مشبال، البلاغة والسرد جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب، المغرب، 2010، ص: 102.

[20]- مصطفى الغرافي، البلاغة والإيديولوجيا دراسة في الخطاب النثري عند ابن قتيبة، ص:65-66، نقلا عن البيان والتبيين، ج:01، ص: 134.

[21]- المرجع نفسه، ص: 66، نقلا عن: بول ريكور، من النص الى الفعل، أبحاث التأويل، تر: محمد برادة، حسان بورقية، دار الأمان، الرباط، ط:1، 2004، ص: 211-214.

[22]- ينظر: ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص:103.

[23]- ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص: 57.

[24]- ينظر: مصطفى الغرافي، البلاغة والإيديولوجيا دراسة في الخطاب النثري عند ابن قتيبة، ص105، نقلا عن الفرق بين الفرق، المطبعة المصرية، بيروت، سنة 1990، ص:177.

[25]- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط: 07، 1418هـ- 1998م، ج:01، ص: 139.

[26]- محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية)، دار المدار الثقافية، البليدة، الجزائر، ط: 01، 1430هـ- 2009م، ج: 01، ص: 407.

[27]- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، مشروع قراءة، دار الكتاب الجديدة، المتحدة، ط:03، 2010، ص: 17.

[28]- فصلت، 11.

[29]- أزور: مال، التحمحم: صوت متقطع، اللبان: الصدر.

[30]- ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 79.

فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان

[31]-والتبيين، ص: 273.

[32]- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار المعارف، مصر، تحقيق: محمد شاكر، ج:01، ص: 66.

[33]- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص: 67.

[34]- تروى هذه الأبيات للمعلوط السعدي، والبيتان في قصيدة لجرير يهجو بها الأخطل في ديوانه 577-579.

[35]- من قصيدة للفرزدق في ديوانه، 442-448.

[36]- ابن قتيبة، عيون الأخبار، المكتب الإسلامي بيروت، تحقيق: منذر محمد سعيد أبو شعر، ط:01، 1429-2008، ص:05.